ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537
HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294
المجلد: 7 0 / العدد: 20 (2021) ص: 41/ 60

تمظهرات "النور" في أشعار عبدالوهّاب البياتي،

Light reflection in Abd al-wahhāb al-Bayātī 's poems.

أ(ة). هدية قاسمي فرد *
قسم اللغة العربيّة وآدابها- جامعة خليج فارس- بوشهر(ايران)
hdghasemifard@gmail.com

د. ناصر زارع
قسم اللغة العربيّة وآدابها- جامعة خليج فارس- بوشهر(ايران)
nzare@pgu.ac.ir

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/01/03
تاريخ القبول:
2021/05/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الشعر العربي المعاصر:
- ✓ عبدالوهّاب البياتي:
- ✓ النور:
- ✓ الدلالة:
- ✓ الرمز:

الملخص:

تعدّ ظاهرة "النور" من الظواهر الهامة الّتي قد شغلت الفكر البشري دائماً وتتجلّى صورها في الأدب على نحو لافت للنظر ولها أبعاد رمزيّة متعدّدة في الأدب العربي تغلب عليها الصبغة الإيجابيّة في كثير من الأحيان لعرض الحقيقة والتعبير عن الخير. تتواجد هذه الظاهرة بصورة مكثفة في شعر عبدالوهّاب البياتي (1999- 1926م) الّذي صور كلمة "النور" وما يرادفها مثل السناء والضياء كثيراً جداً في قصائده كبُنية تحمل الدلالات والرؤى الجديدة الّتي يخلق البياتي من خلالها الصور الشعريّة حتّى يمكن تلامس جوهر التعبير عن جمالية المعنى الكامن في مفردة "النور" ورمزيتها التركيبية للتعرّف على المضامين والرؤية الفكريّة لهذه المفردة في قصائده.

فمن هذا المنطلق وقع اختيار الباحثين على ديوان البياتي بهدف إماطة اللثام عن صور "النور" ومعطياته ودلالاته في أشعار البياتي، وكشف رؤية الشاعر عن "النور" وتبين زواياه إلّا أنّ الباحثين حاولا اقتصار البحث على "النور" ومعطياته في المقبوسات المختارة لموضوع الدراسة، ونهجا في ذلك أسلوباً وصفياً تحليليّاً لدراستها. من أهم النتائج الّتي توصلنا إليه من خلال الدراسة، هي أنّ استخدام الشاعر لرمز "النور" يدخل في إطار طموحاته الخاصة وهي الأمل بالمستقبل ويأخذ البياتي هذه المفردة اللغويّة فيضيفها إلى قاموسه الشعريّ ثمّ يبثّ فيها روح جديدة من ديناميكية الإبداع ليجعلها مشحونة بالطاقة والقوة في الاداة والتعبير عن مكونات نفسه؛ فهذه المفردة هي رمز الحريّة والأمل والحقيقة وتدلّ على الثوار ولها صلة وثيقة بأفكاره الّتي تأتي بألوان متنوّعة في إطار الأغراض الفرديّة، والاجتماعيّة والسياسيّة، كلّ هذه الدلالات النفسيّة والتأثريّة حسب التجارب الّتي قد واجهها الشاعر في حياته.

Article info

Received
2021/01/03
Accepted
2021/05/16

Keywords:
- ✓ *Contemporary Arabic Poetry:*
- ✓ *Abd al-wahhāb al-Bayātī:*

Abstract :

The phenomenon of light is one of the most important phenomena that have always occupied the human mind and its images are quite evident in literature. This phenomenon is widely found in the poems of Abdul Wahhāb al-Bāyatī (1926-1999), who used the word light and its synonyms in his poems as a structure containing new concepts and perspectives through which al-Bayati created poetic images so that the essence of expressing the inherent aesthetic meaning of the term can be touched. Light and its symbolism are combined to identify the content and intellectual vision about the term in the poet's poems. From this point of view, the researchers chose Al- Bāyatī 's collection and aims

* المؤلف المرسل

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

at discovering the images of light, its data and implications in Al- Bāyatī 's poetry, and revealing the poet's view of light and revealing its angles. However, the researchers tried to limit the search to light and its data in the selected archive for the study's subject, and they chose a descriptive and analytical method for studying it. One of the most important conclusions we reached through the study is that the poet's use of the symbol of light is within the framework of his dreams, which is hope for the future and home. The term itself is a symbol of freedom, hope and truth, and shows the revolutionaries and is closely related to his ideas, which are presented in different colors within the framework of individual, social and political goals, all these psychological and influential implications to experiences that the poet has had in his life.

- ✓ *Light:*
- ✓ *Semantic significance:*
- ✓ *Symbol:*

1. المقدّمة:

إنّ النور لفظ يحمل دلالات إيجابيّة في الثقافة العربيّة ولايزال الأديب يستخدم هذا لتبيين أفكاره وهواجسه المتعاليّة كما أنّ في بعض الأحيان يعارض الأديب هذه الفكرة السائدة و يأتي بلفظ النور عند حديثه عن الأفكار السلبيّة. عبد الوهّاب البياتي شاعر المجتمع وهمومه فيرصد الأحداث والقضايا فيه ويمزجها بأفكاره وآرائه ليصوغها في لوحة فنيّة عبر استخدام كلمات خاصة كالنور. إنّ هذه الكلمة في شعر البياتي تابع للظروف النفسيّة، والتاريخيّة، والاجتماعيّة والسياسيّة مع أنّ النزعة الصوفيّة تتجلّى بعض الأحيان أيضاً. يضمّ لفظ النور في شعر البياتي دلالات نفسيّة كالأمل، ودلالات اجتماعيّة كالحريّة والعدالة ودلالات سياسيّة كالثورة والثوار ودلالة صوفيّة كرمز يدلّ على الحق والحقيقة.

غالباً ما يتحوّل النور في شعر البياتي إلى رمز تختلف دلالاته بحسب السياق الّذي يرد فيه، وهذا اللفظ يرتبط في شعره ارتباطاً متماسكاً بالنّمو والتغيير والحياة الجديدة واكتساب القيم المثلى ومن ثمّ يتعلق بتحقيق الحلم. «ثمة أساس عاطفي في صور البياتي، إذ يشيع في أغلبها نوع من ضباب الأسى فيكسبها رهافة وألفة، حتّى عندما تكون صوراً جديدة. وهذا انجاز كبير، ففي مثل هذا المقترب العاطفي الأساس، والانشغال بالحياة واستمراريتها، وانهماك الشاعر في تجارب الحياة المتنوعة، تجارب الحبّ والموت والعذاب والانتصار النهائي، يكمن الاختلاف الأساسي بين شعر البياتي وشعر الآخرين. فتجيء صور البياتي الموسّعة المرتبطة دائماً بالمعنى الرمزي في ذهن الشاعر، ولا تستعمل لذاتها مطلقاً».[1]

[1] سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربيّة، 2001م، ص 770.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2. أسئلة البحث:

يهدف هذا المقال الّذي يعتمد المنهج الوصفي ــ التحليلي، إلى دراسة لفظ النور ودلالاته في تجربة البياتي ويعالج الأسئلة الآتيّة: ما مدى توظيف مفردة النور وما يرادفها في شعر عبد الوهّاب البياتي؟ ما هي الدلالات الّتي تحملها هذه الكلمة في شعر البياتي؟

3. خلفيّة البحث:

هناك دراسات حول البياتي وشعره نذكر منها: اطروحة دكتوراه تحت عنوان «الترميز في شعر عبد الوهّاب البياتي» قدّمها الباحث حسن عبد عودة حميدي الخاقاني في جامعة الكوفة عام 2006م. سعى هذا الباحث أن يكشف عن الرموز والأساطير الّتي استخدمها البياتي ويذكر الأسباب الّتي دعته لتناولهما. ورسالة ماجستير، بعنوان «الرمزية في شعر عبد الوهّاب البياتي» للطالبة فهيمه شجاع في جامعة اصفهان عام 1430هـ، طرقت الرسالة إلى دراسة نشأة المدرسة الرمزية وخصائصها في الأدب العربي ثمّ اهتمّت بكيفية أسبابها عند البياتي بعد كشف الرموز عنده من الأساطير والأقنعة والأعلام الإنسانية العامية والشخصيات الشعبية. ورسالة موسومة بـ«الرؤيا الشعرية في بيانات عبد الوهّاب البياتي: تجربتي الشعرية أنموذجا» للباحث بلخوجة عبد العزيز في جامعة أحمد بن بلة وهران، سنة 2015م. شرح الباحث حركة التجديد في العالم العربي ثمّ عرب عن دور البياتي في تطوّر هذه الحركة التجديدية الّتي بدايتها من العراق. وأمّا من الدراسات الّتي تناولت مفردة النور فنذكر مقالاً للباحثة حكيمة دبيران معنونة بـ«تجلي نور در شعر بروين» في مجلة مطالعات اجتماعي روان شناختي زنان، العدد 1، السنة 1382ش. توصلّت الدراسة إلى أنّ السيرة الذاتية والاضطرابات الاجتماعية الّتي مارستها بروين أدت إلى توظيف النور في شعرها بدلالات إيجابيّة. وكذلك مقالاً للباحثة مينا بهنام موسومة بـ«استعارة مفهومي نور در ديوان شمس» في مجلة نقد ادبي، العدد 10، السنة 1389ش. قد أرادت الباحثة أن تشرح تجسّد المضامين الانتزاعية في شعر مولانا ثمّ تذكر مراتب النور في عالم العرفان وفق أشعار مولانا. وأيضاً مقالاً مشتركاً تحت عنوان « شهر نور و ظلمت در شعر سهراب» الّتي قدمها محمّد علي كذشتي وبهروز روميانى منشور في مجلة ادبيات بارسي معاصر، السنة 3، العدد 2، عام 1392 ش. طرق المقال إلى دراسة عالمين في شعر سبهري وصور لنا عالم النور وعالم الظلمة بالاستعانة من التعاليم الإسلامية والعرفانية. ولكن بالنسبة إلى مفردة النور ودراستها في شعر البياتي، لم نعثر على دراسة خاصة تعالج موضوع بحثنا، وبهذا وقع اختيارنا على دراسة هذه المفردة في شعر البياتي.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

4. النور في شعر البياتي:

عبد الوهّاب البياتي قد وظف رمز النور كعنصر بنائي في أشعاره في إطار الدلالات المختلفة الّتي تحمل أحلامه الاجتماعيّة والسياسيّة. غالباً ما يتحوّل النور في شعره إلى رمز تختلف دلالاته بحسب السياق الّذي يرد فيه، وهذا اللفظ يرتبط في شعره ارتباطاً متماسكاً بالنّمو والتغيير والحياة الجديدة واكتساب القيم المثلى ومن ثمّ يتعلق بتحقيق الحلم.

4_1. رمز الشعر

للشعر رسالة إنسانيّة في كلّ العصور، والإنسانيّة كلمة تتحمّل دلالات إيجابيّة ومعانيساميّة. بما أنّ الشعر هو وسيلة لإيضاح أغراض الإنسان وأفكاره والتعبير عن عواطفه وطموحاته ويعتبر خير أداة لتصوير آماله وآلامه، فقد اتّخذ الشعراء من الشعر وسيلة لأداء رسالتهم الاجتماعيّة والسياسيّة. إنّ هذه النزعة الإنسانيّة هيمنت على أحاسيس البياتي بسبب نزعته الاجتماعيّة فنراه استخدم مفردة النور وما يرادفه؛ لأنّ رؤيته الشعريّة «كان جوهرها التمرّد والثورة، والبحث عن السعادة والفرح، وعن العدالة والفردوس الأرضيّ»[1] وهو صاحب ثروة معنويّة غزيرة تتغلغل في طوايا النفس من خلال العصف الفكري والعاطفي على عمود الكلمات الّتي تثير العواطف وتبيّن حقيقة الشاعر وأحاسيسه. البياتي يصف في هذا المقطع مقدرة أشعاره بحروفها المتوهجة على إزالة المظالم وقمع الطغاة ويرفض الفكرة الّتي ترى أنّ أشعاره دون أي تأثير، لأنّه على ثقة أنّ كلماته تستطيع أن تهدم جدران سجون اليأس والظلم وتضيء بأنوارها منازل الفقراء والبائسين ويقول دائماً: «لا أحسّ بظلم خاص، إنّما أحسّ بظلم البشر»[2]؛ لذلك يقول:

«كلماتنا ستدكّ جدرانَ السجون/ وتضيء للموتى منازلهم وتكتسحُ الطغاة/ بحروفها المتوهجات/ كلماتنا! ما كان لا، عبثاً يكون»[3]

إنّ سلاح الشاعر في هذه المعركة المهولة من دون شك كلماته المؤثرة، الكلمات الّتي لن تذبل أبداً وتسيل في قلوب النّاس حتّى تقمع الطغاة وتدمر أسوار الظلم والحرمان وتضيء نور الحقيقة والأمل بحروفها المتوهجة في ذاكرة النّاس الّذين تعرضوا للمآسي حيث أصبحوا كجثمان ميت ولم يبق لديهم أمل إلّا في شعر الشاعر وكلماته المتوهجة. لأنّ الشاعر عندما يواجه «محنة الوجود والمذلة الكونيّة، والأرضيّة الّتي لا يواجهها وحده بل مع الآخرين، فانّه يصبح فما يصرخ بكلّ أفواه التعساء والمعذبين والمنبوذين والمهمشين في كلّ زمان ومكان، ولهذا كلمته كلمة عرش الشاعر، لأنّها تعبر

---

[1] عبدالوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 46.

[2] المصدر نفسه، ص 91.

[3] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 1، دار العودة، 2008م، ص 143.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X587

عن الآخرين الّذين لم يستطيعوا أن يصرخوا أو يستغيثوا ويعترفوا، ذلك لأنّ صوت الشاعر هو صوتهم، وصوتهم هو صوت الشاعر»[1].

يصف البياتي المرأة اللطيفة الجميلة بعينيها السوداوين الّتين تحمّلتا بأوراق الليمون والقداح وتعطّرت بورد ناريّ وقطرات المطر الطيبة عند الصباح الباكر في مدينة غرناطة الّتي ولد الشاعر في ما بينها أي ما بين ماضيها وحاضرها، ولكنّها ماتت من جديد قبل أن تقوم لها قائمة لأنّ الظروف الموضوعيّة والتاريخيّة لم تتهيّأ لولادتها لكي تصبح مدينة من مدن الحريّة. ولكنّ البياتي يتأمّل «غرناطة الّتي هي في (المابين) كان يري بعض القناديل الّتي كانت تشع وتنطفى في نوافذها البعيدة،»[2] كأنّها ترسم طفولته السعيدة. ثمّ يهتمّ البياتي بشعره وأحلامه في القصيدة الّتي مرتبطة بخيط نور الحقيقة:

«غادةُ المضواع/ ذات العيون السود والأقراط/ تجمّلت بورق الليمون والقداح/تعطّرت بماء ورد النّار/ وقطرات مطر الأسحار/ غرناطة الطفولة السعيدة/ طيارة من ورق، قصيدة/ مشدودةٌ بخيط هذا النور»[3]

لأنّ الشاعر «قد يقع أحياناً على بعض التجارب الّتي ربّما لا تكون من الناحية الكميّة كبيرة، ولكنّه يجد في القليل منها ما يضيء الذاكرة الإنسانيّة الشعريّة، ولعلّ أهم مصدر تغذي عليه هذا التحوّل هو التجربة الوجوديّة الّتي كانت خيط النور الّذي امتدّ طوال حياته منذ الطفولة. وكانت الأغذيّة الروحيّة الّتي استمد نسغها وحيويتها من تكوين العراق المادي والروحي حيث تتجاوز وتتحاور وتتآخى القوميات المختلفة والأديان المتعدّدة بكلّ تاريخها المتوثب المتمرّد ومن تلك الذاكرة. لهذا التنوّع والاختلاف، ولدت كلمات البياتي الأولي وقصائده ونمت بعد ذلك عندما أضاءها الوعي وخفّف من غلواء الإحساس ولعب دوراً مهمّاً في بلورتها وتوحيدها» [4].

يرسم البياتي أحلامه وهو منتظرٌ وقوعها في العراق وآثارها الإيجابيّة مع أنّه في المنفى لم يخمد لهيب مشاعره بل اشتدّت قوّته في مواجهة المصائب والشاعر يصور يوماً كان يرتدي بلدهُ ثوب الربيع ويسرّ هذا الخبر قلبه حتّى وقف راحلة الشعر في بلده وعزم على منحه أكبر قدر من قصائده الحماسيّة الّتي يلبسها كثوب منقّش حتّى ينتشر فيه عطر الياسمين وهي ضوء شعلة زرقاء ووردة حمراء:

---

[1] عبدالوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 35.

[2] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، صص 85_86.

[3] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 153.

[4] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 53.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

«كانت بلادي ترتدي ثوب الربيع/ أوقفت راحلتي/ وقلتُ: بكم تبيع/ سلطانتي/ هذا الضياء الأزرق الورديَّ/ هذا الثوبَ/ هذا الياسمين/ قالت: بكل قصائد الشّعراء/ ضاحكةً/ ولكن، لن أبيع»[1]

كما هو يقول: «لم تأخذ الغربة ولا النفي منّي شيئاً، بل منحاني حصاني ضدّ التفاهة والعدميّة والمجانيّة، ومنحاني القوّة في مواجهة الشرّ والذّل الكوني كما جعلتْ من قصائدي شعلة زرقاء ووردة حمراء أقدّمها إلى قرّائي كلّما حان موسم الازدهار والربيع. ولقد نبتت هذه الزهرة في حقول العالم وأينعت في ربيع الشعوب الّتي طال انتظارها للمعجزة الإنسانيّة الّتي تضع حدّاً لعذاباتها الأبديّة.» [2] الشاعر يرى تحقّق آماله في الوطن كأنّه ترتدي ثوب الربيع والشاعر يقصد أن يبيع شعره ويعبر عنه في هذا المقطع بالسلطانة والضياء الأزرق الوردي لذلك يجري محادثة بينه وبين الراحلة الّتي استعارة من ارادة الشاعر لترك الوطن . لكن الشاعر لم يبع شعره بكلّ قصائد الشعراء لأنّه يتضمن اللوعة والحركة والأمل للتغيير.

والبياتي قد ربط شعره بكلّ أجزاء حياته ويشرح لنا حقيقة وغاية أشعاره ويقول:

«حتمي أمري الحرف/ قدري ناري الحرف/ وطني منفاي الحرف/ نظري في قلبك، نوري الحرف»[3]

إنّه يعتقد كلّ حياته من أموره، قدره، وطنه ومنفاه مكون من كلمات أشعاره. النور أيضاً هو نفس كلمات الشاعر الّذي يوحي بالأمل الكامن في النفس والّذي يشدد عزائم الشاعر لبيان أحاسيسه ويزين له ما يلوح أمام النفس من أمور المستقبل ويقوده إلى السعادة والأماني الجميلة.

2_4. رمز الحريّة:

إنّ الشعب العراقي عاش تحت وطأة الحكم العثماني الدكتاتوري زمناً طويلاً، ثمّ احتلت بريطانيا العراق وبعد مدّة أصبح بلداً مستقلاً، لكن لم يحصل تغيير لافت؛ كأنّ الحريّة في هذا المجتمع باتت بضاعة نادرة. إنّ «الحريّة بمستوياتها المختلفة، منها ما يتعلّق بالذات الجمعية، ومنها ما يتعلّق بالذات الفرديّة، والّتي ينطلق بعضها من الحريّة الفكريّة، وبعضها الآخر من الحريّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة أهم الأحداث في التاريخ، وصاغت الحريّة معظم تيارات الأحداث ووجهتها، وكانت هاجس المفكرين والأدباء على الدوام، واعتبرت المفتاح السحري لحلّ مشكلة التخلّف والانحطاط. تعشقت

[1] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، صص 516_517.
[2] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 61.
[3] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 317.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الشعوب العربيّة قيمة الحريّة لما عانته من قرون الاستبداد والظلام ووطأة الاستعمار، ولما تسرب إليها من الثقافة الغربيّة من أفكار التحرّر المتطرفة، فصارت الحريّة هدفاً في ذاتها.»[1]

هذه الفكرة، في الواقع يرجع سببها لعدّة عوامل اقتصاديّة وسياسيّة، والظلم والاضطهاد الممارس من قبل الحكومات الدكتاتوريّة وهي صدى لآلام النّاس ومحنهم حتّى انتهى المطاف إلى تأسيس نظام جديد يتبنّى حقوق الإنسان والحريّات الفرديّة.[2]

للبياتي قدرة فائقة على تصوير الواقع الإنساني في أشعاره والتعبير عن ثقته؛ لأنّ «الإيمان والثقة كانا دوماً من الخصائص المهمّة في شعره»[3] في الواقع إنّه دائماً ينتظر الحراك الشعبي بشعاراته الأساسيّة الّتي تتمحّور حول الحريّة الّتي تشير إلى وعي يزداد عمقاً ورسوخاً في اتجاه تحرير العراق من أنظمة الاستبداد بصيغها المختلفة الّتي حكمت هذا البلد عقوداً، وعاثت فساداً وإفساداً، وأفقرت الشعوب وسببت التخلّف، لذلك ينشد:

«يا صرخات النور/ ها أنذا محاصرٌ مهجور/ ها أنذا أموت/ في ظلمة التابوت/ يأكل لحمي ثعلب المقابر/ تطعنني الخناجر/ من بلدٍ لبلدٍ مهاجر/ على جناح طائر/ أيتها العذراء/ والنور والتراب والهواء/ وقطرات الماء» [4]

اضطرّ البياتي إلى اللجوء إلى صرخات نور الحريّة و ووظفه للتعبير عن النجاة من الحصار الّذي أحاطه وقرّبه من الموت في حينٍ كان ثعلب الاستبداد ينهش جسده بالخناجر، هو يهاجر دائماً بسبب ظلمهم من بلد إلى بلد، ومعه نور الحريّة والهواء الطازج وتراب الأصالة وقطرات الماء النقيّة والأمل. إنّ المناخ الشعري والرؤيا والصور وكلمات هذه القصيدة تتولّد من تجربته تحديداً لماهية المكان ووجوده. يكشف الشاعر في هذه الصورة الكثير من صور طفولته حتّى مشاهد الطيور المهاجرة والغيوم ورسم الطبيعة بألوان مائيّة أو رماديّة كلّها كانت ولا تزال من جحيم الطفولة الّتي يعانيها البياتي.

يكون جوهر الحريّة كامناً دوماً في القدرة على الاختيار؛ لأنّ الإنسان يتوق إلى حريّة الاختيار، غير مُكرَهٍ وغير مُرهَبٍ، وغير منجرفٍ في نظامٍ عنيف؛ وفي حيازته لحقّ المقاومة ولكن في عصر سلطة الاستبداد سُلبت من النّاس هذه الحريّة حتّى يسأل البياتي عن النبع الّذي يأتي منه نور الحريّة إلى بلده:

---

[1] بتول أحمد جندية، مفهوم الوظيفة ومستوياتها في الشعر العربي الحديث في القرن العشرين، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، 1431هـ/2010م، ص 40.

[2] منوجهر طباطبايي موتمني، آزادي هاي عمومي وحقوق بشر، جامعة تهران، 1370 ش، 17.

[3] سلمى الخضراء الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربيّة، 2001م، ص 720.

[4] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، صص 145_146.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

«من أين يأتي النور؟/ ونحن في كل العصور حجر الطاحون/ نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور/ يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك/ لكنّنا نظلّ صامدين/ نموت واقفين/ نبحر واقفين/ لمدن المستقبل البعيد/ نغتصب العالم بالموت وبالثورة والرحيل/ نموت في غربتنا لكنّنا نولد من جديد»[1]

إنّ حجر الطاحون رمزٌ للفقراء في شعر البياتي كما قال: «عندما كنت أتأمّل طاحونة القريّة ورحاها كنت أتصوّر أنّ الفقراء هم حجر الطاحون، وهذا الحجر معدّ لنظام كوني كبير ومرعب.»[2] الفقراء والعمال ركيزتان رئيسيتان في شعر البياتي لأنّهما كبذورٍ دُفنا في الأرض وهما معدّان دائماً للثورة. إنّ الشاعر والفقراء الآن مكبلون بأغلال الاستبداد ويبيعهم الطغاة للطغاة كأنّهم عبيد لكنّ معدّان لإرهاصات خاصة، فهما لا يفقدان الأمل ويبقان متفائلين بالأيام البعيدة. بما أنّ الحريّة هي من الطيبات الإنسانيّة هما يبقان صامدين وواثقين بغصب العالم بالتضحيّة والثورة لتذوّق طعم الحريّة الحقيقيّة في العراق. هما متحمّسان للإصلاح بحيث يحرصان على هذا الأمر، وحتّى بعد موتهم سوف يحيون مرة أخري في نفوس الآخرين حين تكرار عقائدهم على ألسنة النّاس. لأنّ البياتي يعتقد بأنّ «لن يموت الشاعر الحقيقي ما دام حياً. وإذا ما مات فإنّه سيولد من جديد من خلال ولادة قصائده من جديد ومن خلال ولادة ذريّة جديدة له ومن خلال امتداد سلالته. إنّه يحيا دائماً وأبداً حياً وميتاً في قلوب محبيه وقرائه، وفي كتب المستقبل وذاكرة الإنسان الجديد»[3].

يتمنّى الشاعر اتّصال ماء الحركات الشعبية الخفيفة إلى بحر الثورة والنصر الحقيقي ويكرّر أمله وهو عودة عشتار مع عصفور الحريّة ونورها إلى العراق ويقول:

«ترضع الدفءَ من الأعماقِ تمتدُّ جذورَ/ لتُعيدَ الدّمَ للنبع وماء النّهر للبحر الكبير/ والفراشات إلى حقل الورود/ فمتّي عشتار للبيت مع العصفور والنور تعود؟»[4]

والحقيقة أنّ البياتي حين مال إلى استخدام أسطورة عشتار في شعره، «وهي ملكة السماء والهة الضياء والحبّ والحياة في السومر وتنزل إلى العالم السلفي لنجاة عشيقها تموز من الأرض الّتي تحكمها اختها الكبيرة، وعدوها آرسيخكال الهة الموت والظلام» [5] استطاع أن ينجح نجاحاً متميزاً حتّى أصبحت الأسطورة وسيلة لترجمان آماله ويتمنّى انزال عشتار إلى عالم الحرمان والظلم مع عصفور الحرية ونورها المضيء. كأنّ العصفور والنور يرافقان عشتار للنزول

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 251.

[2] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 23.

[3] عبدالوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 80.

[4] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 205.

[5] صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية؛ دراسة في المنجزات الروحية والأدبية في الالف الثالث قبل الميلاد، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، 1971م، ص 133.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والنجاة من الضيم؛ لأنّ «أسطورة عشتار قادرة على أن تحيا وأن تعيش، لا بفعل طاقتها وجوهرها الفاعل فحسب بل بفعل النبش من قبل الشعراء الّذي يتعاقبون جيلاً بعد جيل.»[1]

حريّة الرأي من الموضوعات الّتي حظيت باهتمام كبير في القرن المعاصر بين النّاس ومن أهم الانشغالات لدى الشعراء على اعتبارها واحدةٌ من دعائم الديمُقراطية والتطوّر في البلاد، وهذا الأمر لا يتمّ إلا من خلال ترسيخ ديناميكي في المجتمع بواسطة انجازات المفكرين والأدباء. كما عمل البياتي لتحقق هذا الغرض بمساعدة قصائده المنورة:

«لن تقتلوني أيها الأوغاد/ لن تحرموني/ من ضياء الشّمسِ/والإنشادِ/ لن تنصبوا الأعواد/ للحب، للشاعر، للأوراد»[2]

يخيم الخوف على المدينة ويثير كلّ شيء الريبة والخوف الظنون لكن يقام البياتي ويخاطب الدكتاتورية بعد تحجر قلبه بالحقد والضغينة بأسلوب سخط ويسمّاهم أوغاد الّذين قصدوا حجزه وحرمانه من ضياء الحرية والإنشاد ويغضب الشاعر مع إبراز حبّه للوطن والشعر ويهدّد أعداء الحرية بأن لاينصبوا لآماله عود الشنق. لأنّه عانى في وطنه من سلطة الاستبداد والمستبدين الّذين يقتلون الرجال والأحرار ويقصدون إطفاء النور من عيون الأمهات ويحرمون الشاعر من حقوقه الأساسية والابتدائية:

«وفي وطني يقتلون الرجال/ ويطفيء في أعين الأمهات/ بريق الحياة/ طغاة صغار/ ويحجب عنّا ضياء النّهار»[3]

أمّا البياتي فلم يقبل هذه الخزية الّتي قصدها الاستبداد و«رحل عن وطنه وراء شمس الحريّة والثورة، رحل من وطن الظلام السياسي الّذي لا يعرف النهار لعلّه يعود إليه بقبس أو جذوة من النار»[4]

3_4. رمز البعث والإحياء:

تحوّل الشعر عند البياتي من الرومانسي إلى الواقعي بعدما غمر النور الواقع الإنساني أمام عينه مع بداية خمسينات، كانت الصورة الّتي ارتسمت أمامه صورة واقع محطّم يخيّم عليه اليأس. وهكذا كانت أشعاره الأولي محاولة لتصوير هذا الدمار الشامل والعقم الّذي كان يسود كلّ شيء. اكتفى الشاعر بتصويره وعندما تجاوز مرحلة التصوير، لم يكن ذلك

---

[1] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 152.

[2] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 1، دار العودة، 2008م، ص 344.

[3] المصدر نفسه، ص 245.

[4] مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، 1995م، ص 196.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مرتبطاً بالعثور على مبرّر اجتماعي للتمرّد. بل كان مرتبطاً بالقضيّة الميتافيزيقيّة، حتّى لقد كان المفهوم الميتافيزيقي لرفض الواقع والتمرّد عليه هو بداية الالتزام وعلى الفنّان أن يحترق مع الآخرين عندما يراهم يحترقون.[1] فاختار البياتي الدفاع عن النّاس وحقوقهم في كلّ المجالات حتّى أيقن أنّ النور هو رمز البعث والإحياء لمجتمعه:

«وعادت الروح وعاد النور/ وبعث المقبور/ لسقط القناع/ عن وجه هذا الشاهد المشوّه المجدور/ وانحسر الظل عن الصورة واندكَّ جدار الزور»[2]

لا شك أنّ الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة الّتي تسيطر على المجتمع العراقي، تتجاهل أمر الشعب ومصيره، حتّى يخيّب النّاس والمفكرين في تحقّق آمالهم، أمّا البياتي فعلى الرغم من العراقيل الّتي يواجهها في هذه المسيرة، يبقى متفائلاً بعودة نور البعث والإحياء إلى العراق في زمن ما، حتّى يقومَ الثوار الميتون من قبورهم ويأخذوا قناع التزوير والنفاق عن وجه الاستبداد ويفضحوه بين النّاس ويكشفوا حقيقته المشوّهة القذرة ويهدّموا جدار الظلم والكبت؛ لأنّ قوة الشعب العراقي على مواجهة التحديات الداخليّة والخارجيّة مرهونة بمدي انحسار الاستبداد وبمدي تقدّم قضية الحقوق والحريّات الأساسيّة. لهذه العقيدة قوّة غريبة حيث يرى الشاعر أنّها قد تحقّق غايتها بالتأكيد:

«الباب يفتح، والضياء يمسّ نفسي من جديد/ وكأنّما بيض تكسّر عن نسور/ نفسي الّتي كانوا أماتوا تكسر عن نسور/ طارت إلى أفق البكاء»[3]

لأنّه عمد إلى مزج مشاعره بالمشكلات فنتج عن ذلك صياغة جديدة للتجربة الفنيّة وأخذ موقفاً يبشّر النّاس بهزيمة الأعداء وأصبحت قصائده مجموعة من الرؤى المحقّقة لا محالة، لأنّ الباب فُتِحَ لضوء البعث والإحياء حتّى يمسّ نفسه من جديد؛ النفس الّتي كان أماتها المستبدون لكنّها ما ماتت بل قامت، وهي كبيضة النسور الشجاعة، حان وقت ولادتها من جديد فخرجت من الغطاء الّذي كان الاستبداد قد ألقاه عليها وطارت إلى أفق آخر.

وظف البياتي الأسطورة عندما أحاط العراق الخوف والرهيب من قبل الأنظمة السياسيّة لإبراز ما هو في خاطره خفياً. هو يستخدم الأساطير المتنوّعة و«"أورفيوس" من هذه الأساطير وهو شاعر وعازف فريد في اليونان، قام بمعرفة الفن عند "آبولو" وهو إله الفنون الساخرة في جبل "برناس" وقدّمه آبولو قيثاراً ذهبيّاً ينفخ فيه. بعد إشاعة شهرته بين النّاس، عشقته بنتٌ اسمها "اوريديس" وتزوّجته. لكن بعد مدّة لدغتها حيّة وماتت. عزم اورفئوس حتّى يبعث زوجته من عالم الأرواح إلى الأرض. فحضر خدمة "هادس" وهو ملك عالم الأرواح وعرض حاجته، قبل هادس مطلبه لكن شرط

---

[1] عبدالوهّاب البياتي، تجربتي الشعريّة، دار العودة، 1972م، صص 19_20.

[2] عبدالوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 94.

[3] المصدر نفسه، ج 1، ص 178.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

عليه أن لا ينظر خلفه عندما خرج مع زوجته من عالم الأرواح. نسي الأمر ونظر إلى زوجته وهي خلفه كانت تمشي وفقدها أورفيوس إلى الأبد.[1]» استخدم البياتي هذه الأسطورة وخصائصها في قصيدة «هبوط أورفيوس إلى العالم السفلي» لتفتيش عن متنفّس لآلامه الّتي يعيشها:

«مدنٌ تُولَدُ في المنفى وأخري تحت قاع البحر أو قاع لياليها تغور/ وينام النّاس في أسحارها دون قبور/ كالعصافير على حائط النور/ وأنا أحملهم فوق جبيني من عصورٍ لعصور/ أرتدي أسمالهم، أنفخ في ناي الوجود»[2]

يعيش الشاعر «في المنفى ويذوق مرارة الحرمان من وطنه والسفر أو الغربة أو المنفى يشعر عميقاً بشقاء البشر وعذاباتهم وطموحاتهم، وسعادتهم المسروقة»[3] وهذا موقفه الفكري الحرّ الّذي يعتنقه ويدافع عنه؛ يؤمن بإمكان تولّد ونمو المدن الحيّة الجديدة في هذه الظروف القاسيّة؛ قسم منها في المنفى وقسم آخر تحت البحور العميقة الرهيبة والليالي المرعبة. مع أنّ أهل هذه المدن من الغافلين الّذين ينسون البعث والإحياء للحركة الجديدة وينامون كالعصافير على جدران الحريّة، ينتظرون قيام الشاعر وهو كأورفيوس ينفخ الحياة والحريّة في المجتمع لأنّ البياتي اختار طريقاً ليسير فيه، وبهذا الاختيار يكون قد تملّك نفسه، وأحسّ بماهيّة وجوده وكينونته حتّى أصبح قلقاً من النّاس في أدوار حياته ويحمل هذا الموقف دائماً مع نفسه حتّى يساعدهم بقصائده المتوهجة.

فيما كان الفكر الاشتراكي شاع في العالم ويدعو النّاس والمفكرين إلى مثل كالعدالة، والمساواة، والحريّة والتقدّم، فلا بأس أن يأخذ البياتي هذه المبادئ الإنسانيّة حين يرى التخلّف الموجود في العراق:

«آه ما أوحش ليلاتي على أسوار آشورَ مع الموت وأوراق الخريف/ وأنا أصعد من عالمها السفلي نحو النور والفجر البعيد/ ميتاً أُبعثُ في درع الحديد»[4]

دهش الشاعر من ليالي الحرمان والظلم الّتي خيّمت على أسوار بلاده وانتشرت الحزن والبؤس على إثر وطأة الاستبداد والدكتاتوريّة. لذلك عزم على ترك العالم السفلي؛ وهو وطنه إلى عالم الأرواح وهو عالم النور والبعث نحو الحريّة والعدالة والمساوة كما فعل أورفيوس، لكن هبط أورفيوس بعد فقد حبيبته إلى العالم السلفي ولكنّ البياتي اختار الصعود

---

[1] بيير كريمال، فرهنگ اساطير يونان و رم، احمد بهمنش، جامعة تهران، 1356ش، ص 655.

[2] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، صص 203_204.

[3] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 50.

[4] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 204.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

إلى الأعلى للخلاص من مصائبه كما هو يقول: «استطعتُ التغلّب على وحشة المنافة بالتوحّد بالطبيعة والاغتسال بينابيع الشّمس، والالتماس من السحب الّتي تمرّ في سماوات المنافي أن تحملني إلى فضاءات وسماوات أخرى»[1].

4_4. رمز الأمل:

لا مراء في أنّ الحريّة والعدالة والمساواة شرط ضروري وحيوي لحياة اجتماعيّة سعيدة، وإن لم يكن الوحيد لقيام نهضة عراقيّة جديدة مع هذا كان أمل الشاعر في الثورة والتغيير بظهور المدينة الّتي تبنى على أطلال هذه الدنيا. يأمل الشاعر أن يبدأ في المجتمع توجّهاً حذراً وانتقائياً نحو الانفتاح السياسي والاجتماعي وإفساح مجال العمل العام لإرادة حقوق الإنسان.

إنّ البياتي بعد أن أخذ شعره طابع الواقعيّة فأصبحت آماله جماعيّة ونسي الأنا الفرديّة وارتبط ارتباطاً وثيقاً بقضايا الوطن؛ فأصبح صراخه هو صراخ الوطن، نوره هو نور الوطن وحرمانه هو حرمان الوطن، وعليه أن يخصّ شعره للوطن ومصالحه:

«ستكبر الأشجار/ سنلتقي بعد غدٍ في هيكل الأنوار/ فالزيت في المصباح لن يجفّ، والموعد لن يفوت/ والجرح لن يبرأ/ والبذرة لن تموت»[2]

والشاعر يأمل وينتظر ثمار أشجار الحركات الشعبيّة في البلاد ويعدّ نفسه بزيارة الحقيقة في أنوار الأمل؛ الأنوار الّتي تنتشر من مصباح هذه الحركات الّذي يضيء العالم دائماً وكأنّ الزيت لن يجفّ فيه وهذا الوعد حقٌ دون شك لا يفوت زمن تحقّقه؛ لأنّ بذرة انتصار الشعب على الحرمان والفقر والظلم لن تموت كما أنّ البياتي يقول: «إنّي واصلتُ السير وإشعال الحرائق في انتظار معجزة تضاهي معجزة أصحاب الكهف، وهكذا فإنّ خلايا روحي وجسدي ظلت تنتظر، كما تنتظر البذرة في باطن الأرض لكي تشقها وتشرأب بعنقها معانقة نور العالم »[3].

«يعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد. صنع الإنسانُ القوي للإنسان الضعيف سلاسلاً وأغلالاً، وسمّاها تارةً ناموساً وأخرى قانوناً، ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام. ليست جناية المستبد على أسيره أنّه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنّه أفسد عليه وجدانه،

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 143.

[2] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 20.

[3] عبد الوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 164.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

TAWASOLIA JOURNAL مجلة التواصلية ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X587

فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحريّة، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.»[1] قام البياتي لهدم هذه العقيدة وأنكر الّذين لايهتمون بقضايا النّاس:

«ودفنت في أعماقي ذاكرتي/ فأسى وزويعتي وأحطابي/ وقبورَ أحبابي/ وفتحتُ أبوابي/ للنور والظلمات أبوابي/ والتافهون وراء حائطنا / يرنون للموتى بإعجاب»[2]

يدفن الشاعر ذاكرة الثورات الشعبيّة والأسى والحرمان وقبور الأحباب ثمّ يذكر قسمين من النّاس في حكم الموتى: الثوار الّذين قتلوا في سبيل عقائدهم والآن تحرّكوا من قبورهم، والتافهون الّذين غفلوا الحركة الشعبيّة في بلدهم وأصبحوا منقبضين بالموت دون حركة. يجتمعون حول الثوار وهم موتى الآن لكنّ الشاعر فتح الأبواب لنور الأمل.

عندما يولد الإنسان ويعيش في ظروف استلاب اجتماعي وثقافي وسياسي، ثمّ يرفض هذه الظروف ويهتمّ لآماله يسمّي العودة والموت ولادة أخري:

«ولادة أخري هو الموت، هو الإياب/ الرمل والحصي على الشاطيء والضباب/ زوارق الحبّ/ تحطمت/ وغاض النورُ في العباب/ ريشةُ نسرٍ غُرزت في وردةٍ، كتاب/ ظلَّ طوال الليل مفتوحاً/ وظلّ العندليبُ ساهداً في الغاب/ ناظم عادَ من يدق البابَ؟/ عاد من المنفى مع الطيور والسحاب/ كان الصدي يزقو/ وكان البحر في انتظاره»[3]

مع أنّ زوارق الحبّ تحطمت وغاض نور الأمل في الأمواج المضطربة ومزجت نفوس الثوار بالدماء كوردةٍ حمراء لكنّهم ما ماتوا بل لا يزال كتاب حكايتهم مفتوحاً طوال الدهر ويبقى العندليب والبحر ساهرين منتظرين إتيان الناظم من المنفى الّذي يحمل روح المطالبة بالحركة والثورة مع الطيور والسحب الّتي يحبّها البياتي كثيراً لأنّ الشاعر يحسّ كأنّه طائر تارةً وتارةً أخرى كسحاب، «لأنّ هذين الكائنين يحقّق كلّ منهما حريته بالرحيل، ولعلّه، بسبب ذلك، يحسّ بأنّه أكثر حريّة عندما جرب النفي في البداية »[4].

إنّ البياتي عاش في بلد عانى من الحرمان والفقر والضيم وهو شعر بقلق وحاول الاقتراب من هولاء المعذبين والتضامن معهم في القول والفعل مع أنّه يحمل في نفسه الآمال المتعدّدة كما يقول: «لقد بدأتُ معرفتي بالعالم في الحي الّذي نشأتُ فيه ببغداد بالقرب من مسجد الشيخ عبدالقادر الجيلاني وضريحه، وهو أحد كبار المتصوفة، كان الحي يعج

[1] مصطفى لطفي المنفلوطي، النظرات والعبرات، دار الجيل، 1984م، ص 129.
[2] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 1، دار العودة، 2008م، ص 129.
[3] المصدر نفسه، ص 490.
[4] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 57.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بالفقراء والمجذوبين والباعة والعمال والمهاجرين من الرّيف والبراجوازيين الصغار، كانت هذه المعرفة هي مصدر ألمي الكبير الأوّل. كان منظر الموت هو المنظر المألوف لدي، فالأبقار والجواميس والجمال والأغنام كانت تقاد إلى المسلخ حيث تقدم هدايا ونذور إلى مقام الجيلاني وتعدّ منها الأطعمة الّتي ينتظرها الجوعى والمساكين وبعض الزّوار الّذين قدموا للطواف في ضريح الشيخ. فبغداد المدينة الّتي كانت ولدت فيها كانت تعج بصور البؤس الإنساني الّذي لازم المجتمعات الفقيرة وقد كنت أتصفح وجه الألم في كلّ العصور، ولهذا كنت أستنجد بالآلهة والأساطير وأضرحة الأولياء والكاتب، لكي أتساءل: لماذا كلّ هذا البؤس؟» [1]

«أحرقني البؤس/ الضوء/ التجوال/ بحذاء مثقوب تحت الأمطار/ أيام العيد/ أنوار مآذن بغداد/ باب الشيخ/ نذور الفقراء/ أحرقني برق العشق،/صغيراً كنتُ/ وكانت/ فبماذا تأمرني، سيدتي، الآن» [2]

الظلم الّذي كان يغمر الناس كان يجعل البياتي أن يشعر بقلق محموم، وكان يحاول الاقتراب من هؤلاء المعذبين ويحاول التضامن معهم في القول والفعل فينظر البياتي إلى البؤس والضوء معاً لأنّ كليهما يحرقان نفسه وهو في دوامة أو دائرة مغلقة يجول في هذه الدائرة بحذاء مثقوب مع أنّ الأمطار تنزل من السماء لكن ليست معها بشارة للتغيير بل تتجلّى الفوضى في بلده و في غمرة هذا الحزن هناك بصيص من الأمل وهو الضوء الّذي يشرع أن يحرق نفسه والبياتي هو الّذي منشغل بهموم التحرير والمقاومة وهو محطم منكسر منهار ويترك قناعه البشري وراح يلبس قناع الثوار، يأمل في برق العشق الّذي يحرقه في باب الشيخ؛ في مدينة طفوليته.

5_4. رمز الثورة:

البياتي يوظف الشعر لبيان هواجسه «بما أنّ الشعر قادر على منح الإنسان ذاكرة جديدة وقدرة على الصبر والانتظار ومواصلة المسيرة الّتي ستحقّق أهدافها مستقبلاً، فإنّه يصنع ثورة الإنسان الّتي تترك آثاراً عميقةً في مسيرته الإنسانيّة نحو المستقبل »[3]، ولأنّه عاش عصراً كان الشعب العراقي يكتوي فيه بويلات الحروب، فضاقت البلاد ذرعاً من تلك الظروف الصعبة وتشهد هذه المشاهد القاسيّة دائماً والشاعر جزء من مجتمعه فعليه أن يصور هذه المشاهد مع البحث عن الحقيقة والعدالة والتركيز على نمّو الكيان الإنساني:

---

[1] عبدالوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 14.

[2] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 533.

[3] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 83.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

«العاشق الطفل على جواده الناريّ فوق الكوكب الجديد/ يكتشف الغابة والينبوع/ وهو على خريطة الجسد/ يعكف في الحلم على بحيرة العيون/ منتظراً تحوّلات النور/ وصرخة الولادة الجديدة/ في جسد الطبيعة/ وزرقة السماء في القصيدة»[1]

يصف البياتي طفولته وولادة التمرّد والثورة في نفسه عندما يقول: «إنّ بذرة التمرّد والثورة قد ولدت معي، وتغذت ببؤسي ودمي، وببؤس ودم معظم النّاس الّذين كانوا يضجون بالحياة في زمن الطفولة والشباب الأوّل الّذي عشته»[2] حتّى إنّه مع طفولته و ألعابه دائماً يحلم بالثورة، منتظراً تحولات هذه الثورة المطلوبة ويظلّ محكوماً بالانتظار. يرفض الموت ويريد الإحياء والبعث لهذه الغابة المنشودة في الطبيعة والشعر لأنّ «الثورة بمعناها الحضاري مستمرة كما تستمر الشّمس في احتراقها وارسال نورها إلى الأرض وإلّا فإنّ البشريّة ستهلك »[3]. ثمّ يخاطب الشاعر النور الّذي شهد في سبيل آمال الوطن:

«أيها النورُ الشهيد/ عبثاً تصرخُ فالعالمُ في الأشياء والأشجارِ واللحم يموت/ والصبايا والفراشات وبيت العنكبوت/ والحضارات تموت/ عبثاً تُمسكُ خيط النور في كلّ العصور» [4]

لأنّ الفساد انتشر إلى حدّ ندم الشاعر من إنجازاته قديماً وسمّاها عبثاً لأنّ الموت يفني العالم بكلّ ما فيه من الأشياء وأشجار المقاومة وفراشات الحريّة والثوار و بيوت الأعداء المتزلزلة والحضارات الرفيعة العريقة ويصبح التمسك بضوء هذا النور أمراً عبثاً دون جدوى. إنّ الملاحظ في هذا الرأي هو «أنّ الشاعر قد طرح مفهوماً جديداً للنضال الإنساني المرتبط بالصمت والترقب والمراقبة، فبالرغم من الدمار الشامل الّذي صور به الواقع العربي في هذه القصيدة إلّا أنّه صور الشعب العربي الّذي يبدو للوهلة الأولى نائماً أو غائباً لكنّه ليس هكذا لأنّه كان يراقب الأشياء بحدّة ودقّة، وكان يسجل في ذاكرته كلّ ما يدور حوله، وكان يحاول أن يستنبط أدوات جديدة للنضال وتغيير الواقع، وبالرغم من أنّ هذه الأشياء لم تظهر بعد، لكنّه متأكّدٌ أنّ الشعب العربي وشعوب العالم الأخرى قد استخدمت مثل هذه الأدوات النضاليّة لتحقّق الحريّة والعدالة والمساواة » [5].

كان النّاس في سنوات صبا البياتي، « يؤمنون بالحياة، ويعملون في صمت من أجل تغييرها عن طريق الكدح والعمل المضني المتواصل. وهذا الإيمان بالحياة، وبضرورة تغييرها كان يكمن في أعماقهم من غير أي يعوه، مما أضفى على

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 313.

[2] عبد الوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 16.

[3] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 120.

[4] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 204.

[5] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 120.

Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وجوههم لوناً من القناعة والبراءة والصمت، ولكنّه يكمن خلف هذه المظاهر الغضب المتربص الّذي ينتظر فرصته لكي يثب وينطلق ويغير. وهذه خاصيّة وراثيّة توارثها الفقراء منذ أقدم العصور حتّى أنّها أكسبت ملامحهم ونظرات عيونهم ووجوههم سمات خاصة وبشكل خاص، حيث لم تفسدهم حياة المدن الكبرى وتحولهم إلى نفايات عاجزة، كانوا أشبه بالبذور الأولي للغضب والتمرّد»[1]:

«سيدتي، لم تؤمن، حتّى الآن بأن الأرض تدور/ وبأنّا ذرات، لا تفني، سابحة في النور/ نتعانق تحت نجوم الليل وفي ضوء الشّمس نموت/ نترك ما تتركه الثّورات المغدورة من نارٍ وبذور/ في رحم الأرض المحروث»[2]

كما أنّ «الثوري لن يعرف الهزيمة ولن يقبلها بأيّة حال من الأحوال»[3] فيؤكّد البياتي مثابرته لتحقيق أغراضه ويصور نفسه والثوار بذراتٍ أبدية أزلية في العالم، لا تفنى بل سابحة دائماً في نور الثورة والحقيقة. إنّهم لا يموتون بعدما تغلبت الثورة على النّاس وأشاعت أنوارها في العالم، هم يغرسون بذرة هذه الحركات الشعبيّة في قلوب النّاس و يسعون لتهيئة الظروف لإنجاز وتحقيق الثورة حقيقةً.

6_4. رمز الحق:

فكرة التصوّف شغلت بال البياتي وكشفت مصادر الوعي عنده حتّى اعترف بهذه وقال: «كنت أحسّ بالأسى والحزن لأنّني لا أملك المفاتيح الّتي أفتح بها المئة باب الّتي كانت تنتظر من يفتح مغاليقها، وذات يوم استمعت إلى مقرئ يردّد الآية الكريمة: اقرأ باسم ربّك ... ومن هذه الآية بدأتُ أتململُ وشعرتُ بنور داخلي وبقوّة غريبة تمتلكني »[4]. هذه الفكرة تظهر في قصائده واضحةً عندما آثر الشاعر التخلي عن الحقد والانانيّة والشر والاهتمام بالحريّة والعدالة والحق. كما يقول: «إنّني لا أسعى إلى مملكة الله في العالم الآخر بل أسعى إلى مملكة الله والإنسان في هذه الدنيا والتصوّف لا يعني عندي لباس الصوف أو الدروشة أو حلقات الذكر بل يعني التخلي تماماً عن الأثرة والانانيّة والحقد وكلّ صنوف الأذى والشّر والاتّحاد بروح هذا العالم وبموسيقى الكون الّتي تحلّ بالقصيدة وتجعل منها كائناً يسبح باسم الحق والحريّة والعدالة والحبّ الأعظم»[5]:

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م ، صص 22_23.

[2] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 435.

[3] عبد الوهّاب البياتي، تجربتي الشعريّة، دار العودة، 1972م، ص 76.

[4] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، صص 99_100.

[5] المصدر نفسه، صص 166_167.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

«والأزاهير إلى النور تُصلّي، والكلابُ/ تنبح الأموات، والليل المولي، والهضاب» [1]

يخلط البياتي العرفان بالثورة ليخلق عرفاناً ثورياً ويقصد بشعره تحقيق التطلّعات الوطنيّة ويدعو إلى الانضمام إلى الثورة. لذلك يصف الأزاهير الّتي تصلّي إلى نور الحق وهي ترمز إلى الثوار الّذين استشهدوا في سبيل النور مع أنّ الأعداء وهم ككلاب تنبح دائماً بصوت الموت للثائرين وفي الواقع كلّ هذه المشاهد تشير أنّ الظروف القاسيّة تهيّأت وأعدّت لتدمير أحلام النّاس.

البياتي شاعر مؤمن بالمقدّسات ونور الحق و تلألؤه على حياته كما يقول: «كنت أصلي الفجر وأتوضأ بنوره الّذي يطرد الغبش، فجدّي كان رجل دين يستيقظ في كلّ فجر. وكنت أؤدي الصلاة معه ثمّ نفترق لكي نلتقي في فجر آخر. وعندما انتقل إلى رحمته تعالى لم استيقظ الفجر بعد حزناً عليه وحزناً على الدنيا الّتي كنت أراها في الفجر. قليلاً ما أرى الفجر الآن... كانت حياتي عبوراً من الفجر إلى الفجر، وما بين الفجرين أتلو تعويذه لطرد الأرواح الشريرة الّتي لازمتني طوال نومي ومن هذا البرزخ المسكون بالأنوار كنت أبدأ بكتابة قصائدي الجديدة»[2]:

«رأيت غُصناً مزهراً يطل في الديجور/ على من فوق جدار النور./ بكيت؛ فالربيع مرّ ثم عاد وأنا ما زلت في بوابة البستان/ مُصلياً لغُصنهِ المزهر، للنور الّذي يأتي من الداخل»[3]

يرى الشاعر تلألؤاً من حركات الثوار وهو كغصن مزهر يطل في ديجور وظلام الاستبداد مع أنّ جدار نور الحق يظلّ على نفس الشاعر لكنّ البياتي يبكي لأنّه قد شاهد مشهداً يثير مشاعره كما يقول: «أبكي عندما أواجه بمشهد إنساني كأنّ أرى .... شعوباً تباد بأكملها، أو عالماً ضاع بين الجهال»[4] فربيع الانتصار مرّ على الشاعر والثوار ولم يتحقّق النجاح والنصر. الشاعر والأحرار ما داموا واقفين على بوابة بستان الانتصار فإنّهم ينتظرون ويعدّون الأيام لزمن الوصول وهم يصلون لنور الحق الّذي يأتي من داخل البلد ولهذا النور قداسة حتميّة.

7_4. رمز الظلام:

كما أنّ شعر البياتي «لا ينتمي إلى قريّة من قرى العراق ولا إلى محافظة أو طائفة أو عرق محدّد، وانّما يعبّر عن تمرّد العراق بطبيعته وإنسانيته... فالعاصفة أو الرعد الّذي تضمّه جوانح العراق طوال تاريخه كانت تتسرب على شكل كلمات

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 1، دار العودة، 2008م، ص 191.

[2] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 144.

[3] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 257.

[4] عبد الوهّاب البياتي، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م، ص 91.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وقصائد»[1] البيفقد قام الشاعر لإعادة الثورة بالرغم من أنّه عاش في عصر البؤس والضياء معاً وأحاطته خيوط الأمل السوداء، ينتظر نار الثورة وعاصفة الحركات الشعبيّة «لأنّ التعاسة الصامتة الّتي لا يسمع بها أحد وسط هذه الأنقاض، والبحث والكشف عن إنسان كلّ الحضارات والعصور دفعه إلى تلمس الفجر الّذي كان أشبه بالخيط في يد الليل كلّما ألقى به في أفق، عاد إليه»[2]:

«ووراءي خيط من نور يمتد لنافذة أخرى/ أشبعني الضابط ضرباً/ وجدوا في جيبي صورتها/ بلباس البحر الأزرق/ ترنو للأفق المغسول بنور الغسق الكابي/ وبنار الليل القادم من مدريد/ يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين»[3]

لكنّ هذا النور المطلوب لم يشرق على نفس الشاعر وبلده حتّى إنّه اضطرّ إلى أن يرنو للأفق الّذي امتزج بنور الليل الدامس وبنار ليالي الشعراء المنفيين في مدريد، ومدريد جزء من تجربته الشعريّة ووجوده. لكن البياتي في المنفي أيضاً في العذاب لأنّ الجزارين وهذا اللفظ استعارة من الدكتاتورية يبيعون لحوم الشعراء وهذا كناية عن عذاب الشعراء من قبلهم.

البياتي شاعر وقد غنّى حياته في تجاربه، في جميع المدن الّتي عاش فيها والأزمات الروحيّة الّتي عانى منها، والشعور بالغربة والنفي، ومرارة الحياة، كلّ هذا ولّد عنده روح تمرّد جديد يتخطّى التمرّد السابق، الّذي كانت تعود أسبابه إلى عوامل سياسيّة واجتماعيّة وفنيّة أيضاً. «وإنّ جذور تمرّده وثورته استمدت من الشعور الميتافيزيقي الّذي يخامره، ... ولكن هذا الشعور الميتافيزيقي... اختلط بالدم والعرق وبأدواته الشعريّة الّتي بدأت تستشعر رياح الواقع الجديد»[4]:

«وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت/ نار المجوس انطفأت/ فأوقد الفانوس/ وابحث عن الفراشة/ لعلّها تطير في هذا الظلام الأخضر المحسور/ واشرب ظلام النور» [5]

حار البياتي في الغربة بين الموت والحياة، في لحظة انطفأت نار الطغيان والضيم فرأى نفسه الّتي قامت لإيقاد فانوس الحق والبحث عن فراشة الحريّة لتطير في الظلام الّذي وسعه المستبدون في البلاد وهذا الظلام مستطير حتّى يتقصد

---

[1] عبد الوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م، ص 53.

[2] المصدر نفسه، ص 148.

[3] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 320.

[4] عبد الوهّاب البياتي، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دارا لفرقد، 1999م، صص 67_68.

[5] عبد الوهّاب البياتي، الأعمال الشعريّة، ج 2، دار العودة، 2008م، ص 67.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الشاعر شرب ظلام نور الفانوس الّذي قام بإيقاده هو بنفسه؛ كأنّه يريد إزالة وتدمير العراقيل الّتي تسدّ طريق الحريّة أمامه.

الخاتمة:

يبدو من خلال دراسة حياة البياتي ومجموعاته الشعريّة أنّ البياتي وظف مفردة «النور» وما يرادفها للتعبير عن دلالات وفق رؤاه الفكرية والاجتماعية.

1. يأخذ هذه المفردة في شعر البياتي نظاماً حركياً فيتمتّى الشاعر إشاعتها في المجتمع لأنّها دائماً تجسّد دلالات إيجابية وهي الحريّة، والأمل، والثورة، والشهيد، والثوار والحق.
2. قد جاءت هذه المفردة في مواضع قليلة بمعناها الحقيقي. لكن ما هو بارز طابع هذه الكلمة وهو إيجابي وأثرها في قصائد الشاعر.
3. قد استعمل الشاعر هذه الكلمة 307 مرّات في أشعاره ولا يكون هذا تكراراً عشوائياً بل وظف ذلك كطريق لإزالة الظلام والعداء في العالم ويمكن سببه يرجع إلى تفاؤل الشاعر وأمله. كما أنّ العراق كان ومازال نقطة ارتكاز حقيقيّة في شعر البياتي ففي الجو السياسي المظلم الّذي ساد هذا المجتمع، بات الشاعر ينطوي على نفسه باحثاً طرقاً للنجاة فاستخدام كلمة نور وما هو بمعناها دالٌ على الطموحات العاليّة والإنسانيّة؛ لأنّ البياتي يطمح إلى صنع مدينة آماله على هذه الأرض فعليه أن يمتزج بنور الحريّة والثورة والثوار لإقامة هذه المدينة. فهذه الكلمة مع تأرجحها بين دلالات متقاربة، تشير كلّها إلى الشعب وطموحاته الإنسانيّة.
4. يمزج البياتي عنصر العقل والعاطفة معاً في شعره حين يستخدم كلمة النور ودلالاتها؛ بحيث إنّه يرسم للمخاطب الظروف الراهنة القاسية في المجتمع ثمّ يلجأ إلى ذكر حوافز الثورة والبعث والحريّة ويصور لهذه الكلمات الرئيسيّة نوراً مفروضاً حتّى يغرس الأمل في قلوب النّاس للحركة في سبيل آمالهم الاجتماعيّة والسياسيّة؛ لأنّه شاعر يؤمن بالالتزام وبالرسالة الخاصة للشعر.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

قائمة المصادر والمراجع:

1_ أبو غالي، مختار علي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، 1995م.

2_ البياتي، عبدالوهّاب، تجربتي الشعريّة، دار العودة، 1972م.

3_ البياتي، عبدالوهّاب، كنتُ أشكو إلى الحجر، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993م.

4_ البياتي، عبدالوهّاب، ينابيع الشمس "السيرة الذاتيّة"، ط1، دار الفرقد، 1999م.

5_ البياتي، عبدالوهّاب، الأعمال الشعريّة، المجلدان، دار العودة، 2008م.

6_ أحمد جندية، بتول، مفهوم الوظيفة ومستوياتها في الشعر العربي الحديث في القرن العشرين، أطروحة دكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، جامعة حلب، دمشق، 1431هـ/2010م.

7_ الخضراء الجيوسي، سلمى، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ط1، مركز الدراسات الوحدة العربيّة، 2001م.

8_ طباطبايي موتمني، منوجهر، آزادي‌هاي عمومي وحقوق بشر، جامعة تهران، 1370 ش.

9_ كريمال، بيير، فرهنگ اساطير يونان و رم، احمد بهمنش، جامعة تهران، 1356ش.

10_ لطفي المنفلوطي، مصطفى، النظرات والعبرات، دار الجبل، 1984م.

11_ نوح كريمر، صموئيل، الأساطير السومرية؛ دراسة في المنجزات الروحية والأدبية في الالف الثالث قبل الميلاد، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف،1971م.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)